هتاف الهاوية

اقصوصة فرنسية

كانت الجيوش الانكليزية معسكرة على قمة جبل الكوبا متحصنة فى مركز منيع ، لا تحسب للحملة الفرنسية حساباً ، وكانت هذه الحملة تدور بقاعدة الجبل ولا يعلم قوادها كيف يتدبرون الأمر ، حتى رأى القائد الأكبر (ناى) أن يجمع الجيوش وينظمها ليقذف بها الجبل المنيع . ودوت الوديان بصوت النفير المعلن الهجوم ، فاندفعت الكتائب تتسلق الصخور كأنها محمولة على أجنحة ترفعها رفعاً فى الهواء

وما مضت ساعة حتى كانت عساكر ناى وعددها أربعة آلاف مقاتل تحدق بالانكليز على قمة الجبل ، فذعر الجيش المرابط لهذا الهجوم المفاجىء فأصلوا الهاجمين من مدافعهم ناراً حامية ردتهم لأول وهلة على أعقابهم ، فلم يعد يرى على تلك المرتفعات المعانقة الغيوم إلا أشلاء تتطاير فى الجو ، ولم يعد يسمع إلا الأنين يخفته إرعاد البارود يعقد بدخانه الكثيف قبايا تعمى العيون . وكان كلما أبادت المدافع صفاً من صفوف الفرنسيين يتقدم غيره من ورائه ليتقبل الموت . ونفدت الذخيرة ، فصمتت المدافع ، وبدأ الدخان ينقشع عن الموقع ، فخشى الانكليز ارتداد الأعداء عليهم فعادوا أدراجهم مدبرين

وارتفع صوت المارشال ناى هاتفاً بجنوده :

— هيا إلى الأمام !

فتراكضت الكتائب لاحقة بالأعداء معملة فيهم السيف حتى بلغوا منحدر الجبل للجهة الثانية ، فارتجفت الأرض تحت أقدام المتراجعين والهاجمين واهتزت الصخور وفتحت الهاوية فاها ، فتساقطت الجنود فيها فى أقل من لحظة ، وتراجع من بقى إلى الوراء وهم يسمعون صراخ رفاقهم يصعد من الهوة بأنين يفتت الأكباد . وساد السكوت بعد برهة ، فرجعت الوديان صدى عويل الشجعان ، وقد توارروا عن الأبصار فى ظلام هاوية لا قرار لها

ومرت الساعات وقد عاد كل من الفريقين إلى معسكره واهى القوى ، وقد خارت العزائم أمام هذه الكارثة ، وتضعضع الرأى فى إنقاذ ضحايا الهاوية

وعند الساعة التاسعة قبل الظهر دخل معسكر الفرنسيين رسول من قبل (ولنجتون) وطلب المثول أمام المارشال ناى ، وكان هذا منفرداً فى مضربه غارقا فى لجج التفكير يتقطع قلبه حزنا . فتقدم الرسول ووقف بين يديه وقدم إليه رسالة من مولاه ، فأخذها من يده وتلاها كأنه مستفيق من حلم عميق ثم نادى أحد القواد وقال له :

— أعد فرقتك لتسير معى الى الجبل

وما مضت دقائق معدودة حتى كانت الفرقة تتسلق الجبل بقيادة المارشال . فلما وصلوا إلى القمة رأوا ولنكتون فى انتظارهم وحوله قواد جيشه ، وكلهم واجمون . فقال ولنكتون لناى :

— إنك مهتم ولا ريب بأمر الشجعان الذين ابتلعتهم هاوية الكوبا هذا الصباح . وأنت تعلم أن المداء يقف عند الكوارث ؛ فلنتعاون لعل بين رجالك ورجالى أحياء يمكن إنقاذهم من هذه الميتة الشنعاء

وتقدم ناى إلى ولنجتون وصافحه قائلاً :

— كان علينا أن نفكر فى هذا الأمر دون تأخير ، ولكن الاضطراب جمد دمى ، وهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أشعر بها برعشة الخوف

وتقدم الجمع إلى فوهة الهاوية ، وكانت الشمس المحرقة تعكس أشعتها على الصخور البيضاء ، والهواء

البارد يتصاعد من القاع السحيق . وأحنى القائدان الكبيران رأسيهما ، فعلا وجههما الاصفرار ، إذ وقفت أنظارهما فى القعر البعيد الغور على لبد الظلام

وقال المارشال : يجب أن تدلى أحد الجنود ليرى ماحل برفاقه . والتفت إلى أحد القواد قائلاً : أحضر الحبال واثنى برجل

وخرج من الصفوف جندى فرنسى طويل القامة ، وهو يبتسم مفتخراً بالتضحية فى سبيل إخوانه ، فخلع سترته ، وربط وسطه بطرف الحبل الطويل ؛ وبعد أن رفع يده بالسلام أمام المارشال وضع رجليه على فوهة الهاوية ، وبدأ الجنود يُرخون الحبل ، وعندئذ تقدم أحد الجنود الانكليز طالباً النزول إلى الهاوية أيضاً ، فقال نای لولنكتون : لا يرسل فى مثل هذه المهمة عدوان ، فقد يشتبكان فى المنحدر بعراك يحول دون بلوغنا النتيجة التى نتوقعها

فأطرق ولنكتون وتراجع الجندى الانكليزى إلى صفه . وكان الجنود يصلون الحبل بحبل آخر ، وبثالث ورابع ، حتى شعروا بوقوف الجذب من الأعماق . فنادوا جميعهم بصوت واحد :

— ماذا ترى ؟

فأجابهم صوت الهاوية كأنه صدى بعيد : لا أرى شيئاً ، أرخوا الحبال أيضاً

واستمر الجند على إرسال الحبال وقد خفت قوة الجذب ، فاستدل القواد أن الشجاع يسير على مهل بين الصخور متلمساً سبيله على مفاوز لم تطأها أرجل بشر

وما مضت دقائق حتى أصبحت الحبال تلوح فى الفضاء كأنها لا تحمل شيئاً ، فوجم ولنكتون وقال : أحضروا القس الذى وجدناه هذا الصباح على سفح الجبل فلعله يعرف منفذاً لأخراج رجالنا منه

ومثل القس أمام القائدين فقال له ولنكتون : أنت من أبناء هذه البلاد ، فهلا تعرف منفذاً بين هذه الوهاد العميقة نخلص منه رجالنا ؟

وتقدم القس الى فوهة الهاوية ، ثم تراجع وقد كاد جبينه العرق وامتقع لونه ، فقال أحد القواد : لقد زلزلت الأرض فجأة تحت أقدام الجنود فتدحرجوا فى هذه الهاوية

وقال نای : لقد سقط أربعمائة من شجعانى فى هذه الحفرة

وقال ولنكتون : وألف من شجعانى ابتلعتهم هذه الحفرة أيضاً

وعلق الجمع الانظار على شفتى القس منتظرين ارشاده ، فاذا هو يسقط جانياً وتنهمر من عينيه الدموع وهو يتمتم بصلوات الأموات

وكان الجنود أرخوا من الحبال اربعمائة متر ولم يبق لديهم منها سوى عشرة أمتار ، فاذا بصوت ضعيف كأنه الهمس خارج من القاع يقول : أرخوا الحبال أيضاً

وأرخيت الأمتار الباقية وربط الحبل فى نتوء من الصخر ، فخرج من الهاوية صوت يقول : لا يمكننى أن أتقدم بعد ، إننى أسمع صراخاً

وعصفت الريح فى القاع فانقطع الصوت متلاشياً فى الهدير

وتقدم المارشال نای إلى الشفير ونادى بأعلى صوته : أيها الشجاع ! ماذا تسمع ؟

وساد السكوت ، والرعب يملأ النفوس ، ورفع الكاهن يده وبارك ، فانكشفت الرؤوس بخشوع وجثا الجنود مصلين وهم ينتظرون الصوت الأخير

وكان الشجاع المدلى بطرف الحبال لم يعد يقوى على رفع صوته لشدة البرد فى القاع العميق ، فدفع حشرجة أخيرة أوصلت هذه الكلمات إلى الشفير :

« أسمعهم ينادون : فليحى الأمبراطور . . . »

(ف . ف)